فى المروج

للقصصى الروسى مكسيم جوركى

بقلم الأديب احمد فتحى مرسى

. . . . ومضينا فى طريقنا نحث الخطى ، بعد أن خلفنا وراءنا « ميركوب » نهما كالذئب ، ناقما على العالم أجمع ... فمنذ اثنتى عشرة ساعة أو يزيد ، ونحن ندير اللحظ فى نواحى المرج ، ونتقصى النظر على جنبات الطريق ، علنا نقع على شىء نقيم به أودنا ... ولكن أعيننا حسرت عن درك نهاية ذلك الفضاء المتصل . . . وأخيراً قر منا العزم على أن نصل السير ... ولكن إلى أين ؟ . . ثمة إلى الأمام قليلا . . . فسرنا فى صمت وضيق ، وقد تراخت أعصابنا من الجوع ، وارتهكت مفاصلنا من النصب ، وقصرت خطانا من الأين

وكنا ثلاثة عرف كل منا الآخر فى سامر ليلى على ضفاف « الدينير » وكان أولنا جندياً سابقاً فى الجيش ، رجلا أحمر الشعر ، بائن الطول ، ضامر العود ، طلق اللسان ، يروى الكثير عن حياة السجون ، وعيشة الأسار

أما الثانى فكان شاباً ريق الشباب ، لدن المعاطف ، ضاوى الجسم ، وقد أخبرنا عند لقيانا أنه طالب فى جامعة موسكو ، فلم نعن لذلك كثيراً ، فقد كان كل ما يعنينا أنه جائع طاوى البطن مثلنا

وكنت أنا ثالثهم بوجهى الخفر الصامت ، وحيائى الذى لازمنى منذ بواكر أيامى ، ولن أتطلق معك فى الحديث عن نفسى فليس هذا مقام ذلك ، ولكنى أقصر القول على أننى كنت كثير الوثوق من نفسى ولم أزل كذلك ...

وكنت أماشى الجندى فى المقدمة ، أما الطالب فكان يتخطر وراءنا فى وناء ومهل ، وقد علق بمطفيه شىء بال كان يشبه المطف فى حين من الأحيان ، وعلت رأسه بقايا قبعة زرقاء قديمة ، وبدا فى قدميه حذاء عتيق يخيل إلى أنه التقطه من جنبات الطريق ، أما الجندى فكان يكتسى قميصاً وردى اللون ، وقبعة حربية الطراز ، أما قدماه فكانتا عاريتين شثنتين ... وهكذا كنت أنا أيضاً

وطفقنا نقلب الطرف فى أرجاء تلك المروج الناضرة الجنبات ، فما عادت نواظرنا منها بطائل ألهم إلا السماء الرائقة الساجية ، التى كانت أشبه شىء بطبق أزرق هائل قلب على الأرض ، وكان

* تحتفل الأوساط الأدبية فى موسكو فى هذه الأيام بذكرى مرور عام على وفاة شيخ أدبها الحديث ، وكاتبها النابغ مكسيم غوركى ... وقد توفى غوركى فى مثل هذه الأيام من العام الماضى . بعد أن قضى حياة بائسة طويلة ذاق فيها الكثير من ضروب العوز والفاقة والتشرد ، وقد طبعته هذه الحياة على نوع من الأدب مازه من غيره . وهو افتتانه فى وصف البؤس وذكر البائسين ، وقد تخيرنا له هذه القصة لأنها تمثل — على ما نرى — جانباً من عيشته ، وطرفاً من حياته

الطريق ضيقاً حصباً تلوح على حفافيه أكوام مشتتة من القمح الهشيم ، بينما انتثرت فى نواحى المرج بضعة أعواد جافة أغفلها منجل الحاصد فلاحت كتلك الشعرات البيضاء المتناثرة فى عذارَىْ رفيقنا الجندى

ومضينا فى سيرنا ، ووجهتنا ذلك الأفق البعيد ، وقد ضرب عليه السحاب لِثاما رائقاً غرّاراً ، فرفع الطالب إليه لحظه وأومأ نحوه ببنانه قائلا فى مَخيلةٍ وزهو :

— تلك ولا شك جبال « الكرميان » التى درسناها

فنظر إليه الجندى عجباً وقال :

— جبال ... أى جبال يا رفيق ؟ ... تلك سحابة صافية شفّة كاللبن المروّق ، ووددت من من نفسى لو كانت حقا من اللبن المروّق فنروى منها عطشنا ، ونبل بها صدانا ... ومضت برهة قبل أن ينبس أحدنا ببنت شفة . وأخيرا قال الطالب فى لهجة العاتب :

— لقد قلت لكم إنكم تضربون إلى الأصقاع الغير الآهلة بالسكان ... فقاطعه الجندى قائلا :

— لقد قلت لنا ..؟ حقا هذا دورك لتقول لنا ، فأنت بيننا الضارب بسهم أوفر فى العلم ، ولكن خبرنى يا رفيق أين هى إذن الجهات الآهلة بالسكان .. ؟

فلم يحرْ الطالب جواباً ، وسرنا يُرنّقُ فوقنا الصمت ، وكانت الشمس قد جمعت خيوطها الذهبية عن الكون ولم يبق منها على الأفق إلا الشفق الأحمر الزهىّ ، وقد تمثّل فيه الأمل الباسم ، ولفته غلالةٌ وردية شفّة من السحب ، فبدت الروج موحشة صامتة ، وقد هفا عليها السكون ، ورانت فوقها الهدأة ، وأخيراً قال الجندى وهو يتنصّتُ ويتلفتُ :

— لا شىء هنالك ... لم يبق إلا أن نقضى الليل فى ذلك الصقع النائى ... فهيا نجمع بعض الحطب لنضرم النار أيها الرفاق

فانطلقنا نلتقط من المرج ما اعترض سبيلنا من أضغاث الأعشاب الجافة ، وكنا كلما تثنّى الجسم لالتقاط عود جاف يَسّاقطُ على نفسه ، ويأبى أن يستقيم ويستوى ثانية كأن به رغبة ملحة إلى التمدّد والتطرّح ، لما أضواه من الاعياء والنصب والجوع .

وهتف الجندى أخيراً :

— لو قَيّضَ لنا الله من هذا المرج ثمة جذر من جذور النبات ، فان من الجذور ما يؤكل ؟

ولكن الحزون كانت تبدو حولنا منبسطة ممهدة خالية من الأشجار ... وكان الليل غاشياً على الكون ، وقد رجفت فى ثناياه النجوم الفرّارة ، وضاءة الطلعة ، وهاجةُ الجبين ... وعلى حين غرة أقبل الطالب علينا هامساً :

— أيها الرفاق ... إنّ عن شمالكم رجلا راقداً فى المرج ، فقال الجندى :

— رجل ؟ .. ولم يرقد هنا ؟ لابد أنه مزود بالطعام ... فما يدلج إنسان فى تلك الشعاب النائية دون طعام أو شراب ... هيا نذهب إليه أيها الرفاق

وتقدمنا الطالب بمينيه البرّاقة الخضراء ، فسيح الخطو ، حثيث السير ، وكان الرجل جامدا فى مرقده لا تختلجُ أطرافه ، ولا تطرف عيناه فتطرّقَ إلينا الشك ... وقال الجندى :

— ربما لم يكن هذا رجلا ...

ولكن سرعان ما تبددت الريبُ فقد طرق سمعنا صوت متزنُ الجرس ، متسق النبرات شق غواشىَ الظلام يقول :

— مكانكم .. وإلا ألهبت رءوسكم ؟ !

فانتبهنا فاذا الرجل قد انتهض من رقدته وفى يده « مسدس » صغير ، ألجم به أفواهنا وعقل أقدامنا وأخيرا هتف به الجندى :

— لا تُرَعْ أيها الرفيق ... فلن نمسك بسوء اننا نكاد نصرع جوعا ... فأعطنا شيئاً من الخبز

ولكن الرجل تلبّثَ فى مكانه جامدا لا يختلج ، شاخصا لا يطرف ... فاسترسل الجندى :

— ألا تسمع أيها الرفيق ... فأجاب الرجل وهو راجف واجف

— حسن ... ! فصاح به الجندى

— لا تطرقْ فؤادك الريبةُ أيها الرفيق ... فاننا لا نبغى بك شرا

وتبدّتْ على شفتى الجندى ابتسامة ظافرة ، لم يثبتها الرجل الغريب لطول الشقة وبهمة الليل ... وأخيرا قال الغريب :

— انتظروا ... ثم لوح بيده فى الهواء فسقط عند أقدامنا شىء أسود هوى عليه الطالب بيده ، فاذا به بضع لقيمات جافة مُغبرّة ، سوداء مُشمئنة ، فلم نلق بالا لهذه الصفات الأخيرة المتتابعة ، بل جلسنا حول الجندى ، وكان قد ارتفق الأرض وطفق يقسم بيننا الخبز

— هذا نصيبك أيها الرفيق .... وتلك حصتك أيها الطالب ... وهذا ما تبقى لى .... كلا ، ماهذه بقسمة عدل ، أعطنى قطعة من نصيبك أيها الطالب

فانصاع الطالب صاغراً وأعطاه ما طلب ، وجلسنا نأكل فى صمت ... وقد انفردت عن رفيقىّ وأخذت أحطم ذلك الخبز الجاف بأسنانى التى كانت على أهبة لمضغ الصخر ، وأحسست وأنا ألوكُ فى شدق تلك اللقيمات ، أنها سرعان ما انقلبت دماء دافقة فى الجسم فأنستنى ما مضى من الجوع وما مر من الفاقة ... ولكن عند ما ألقيت فى فمى بما بقى من فتات الطعام أحسست جوعا ممضاً من جديد .... وهمس إلينا الجندى أخيراً :

— إننى على يقين من أن ذلك الرجل معه لحمٌ أيضاً ... وأضاف الطالب :

— وللتثبّت من ذلك أقول إن الخبز يفوح برائحة اللحم ....

وكنا جلوسا بعضنا إلى بعض وقد جمع حولنا الليل مسوحه السود ، وبسط علينا الصمت جناحه الشامل حتى عدنا نسمع ضربات قلوبنا ، ونامّةَ أنفاسنا .... وكنا جائعين !

ومضينا نتداول ونتقاول فى ذلك ، إلى أن أشرت أخيراً على رفيقىّ أن نسطوَ على الرجل فنأكل ما بقى من طعامه دون أن نمسه بشر ؛ وصادف هذا الرأى هوى من نفس الجندى فصاح :

— هيا بنا أيها الرفاق

فقمنا متخاذلين وعمنا شطرَ الرجل ونحن نتأمّل فى خطانا ، فما جزنا خطوتين أو ثلاث خطوات .. حتى أصمّ آذاننا دويٌّ طاق شديد شق سكون الروج الشامل ... فصاح الجندى بالرجل :

— أخطأت المرمى أيها الرفيق ! ...

انتظروا قريباً
السيد عمر مكرم
مع الأستاذ
محمد فريد أبو حديد

وأسرعنا إلى الرجل فألقى الطالب بنفسه على كيس طعامه . . . واتجه الجندى نحو الرجل المسكين وكان قد تطرّح على ظهره وهو واجف راعش ، فركله الجندى بقدمه قائلا :

— كان الأوْلى أن تطلق النار على نفسك أيها الغبىّ — وهتف الطالب مازحا :

— لقد عثرت على اللحم أيها الرفاق فتعالوا نأكل . . .

وجلسنا نأكل من جديد ، وكان الليل حولنا ملثما بظلامه ، سواد على سواد . . . . وعلى حين غرة سمعنا الرجل المسكين يغمغم من صوت خافت كأنه الأنين :

— عفواً . . . أيها الرفاق . . . كيف لى أن أعلم . . . لقد أطلقت النار لأن الرعب ملأ جوانحى . إنى فى طريق إلى مقاطعة « سمو لنسلك » وقد تولتنى الحمّى عند مغرب الشمس ، فوهى منها جسمى ، ووهنت أعصابى ، وأخذت على مذاهب السير . . . إننى أمارس النجارة . . . ولى زوجة وطفلتان لم ترياني منذ أربعة أعوام خلونَ . . . لكم الطعام فكلوا كل شىء . . أيها الرفاق . . »

فأجاب الطالب :

— « وهل نحن فى انتظار إذنك ؟ » ثم همس إلينا الطالب :

— لا شك أن ذلك الرجل معه نقود أيضاً

فأجاب الجندى :

— إنك دائما صائب التخمين أيها الرفيق

ثم نهض الجندى قائلا :

— هيا نضرم النار لننام أيها الرفاق . . .

فالتمت عينا الطالب ثم قال :

— وماذا عن الرجل ؟

— فليذهب إلى الشيطان . . . أما كفى أن أكلنا طعامه

وتفرقنا من المرج نجمع ما ألقينا من الأعشاب عندما بغتنا الرجل . . . . ثم أشعلنا النار فى كومة الهشيم ، فاضطرمت وتوهجت وأنضت ما حولنا من الظلمة ، فسرى الدفء فى الجسوم ، ودب الكرى إلى الجفون . وطرق سمعنا صوت النجار الخافت يقول :

— أيسمح الرفاق أن أدنو من النار قليلا ؟ . . إن عظامى يكاد يفتتها البرد . . .

وأخذنا عليه العطف فسمحنا له بالدنو ، فأتى يدب على رجليه وقدميه . . وقد أغرق عينيه فيض من الألم ، وغمر وجهه صبغ من الصفرة . . ، وبدا فى لمع النار زائغ البصر ، متكفّأ اللون ، ثم جلس على كثب منا يمرس أطرافه المرضوضة ، ويبسط أصابعه المثناة . . وبعد برهة سأله الجندى :

— ولم لم تركب البحر مادمت على هذه الحال من الاعياء والوهن ؟

فأجاب فى خفوت :

— لقد نصحوا لى أن آخذ طريق البر لأنه آمن على صحتى . ولكنى لا أستطيع الوصول . . وسيطوينى الموت فى تلك المروج النائية وان أرى طفلتى الحبيبتين . . يا إلهى . .

وأخذ الرجل يصيح فنهره الجندى قائلا :

— « كفى . . . صدعت رؤوسنا أيها الغبى »

وصحت أنا به :

— « لا تعكر علينا صفو النوم أيها الرجل »

ثم أضاف الجندى :

— أسامع أنت ؟ .. أتظن أنك ستنال عطفنا بعد أن أطلقت علينا النار ؟.

وصمت الرجل وصمتنا ،... واستلقى الجندى على ظهره . وتطرح النجار على كومة من العشب ورقدت أنا عن يمينه ، واضطجع الطالب إلى يساره وهو يتثاءب ويتناوم وبعد برهة هتف الجندى وهو يتأمل فى السماء :

— ما أروع الليل الساكن .. وما أبهج السماء الصافية .. تأمل أيها الصديق . إنه ليخيل إلى أن الله خلق السماء ديثاراً لتلك الأرض الناعسة الغافية . ما أجمل تلك الحياة الطلقة الحرة أيها الرفيق .. إنه قد يكتنفها الجوع . وقد يكدرها البرد ولكننا فيها أحرار طلقاء ... نضرب فى ذلك الفضاء الرحيب لا إمرة لأحد علينا ولا نهى ، بل نحن سادة أنفسنا . لقد كاد يقتلنا الجوع فيها أياماً . . . وها نحن أولاء قد أكلنا وروينا .. ورقدنا نط لمنا بلحظها النجوم الفواتن كأنها تقول لنا : « خفضوا عليكم جأشكم أيها الرفاق .. واضربوا فى فضاء الله الواسع وتعلموا وتدبروا ولا تحفلوا بأحد . »

وصمت الجندى قليلاً ثم قال :

— كيف أنت أيها الرفيق النجار .. لا تكن غاضباً علينا لأننا أكلنا طعامك . . . ماذا كنت تريدنا أن نفعل ومعك طعام وليس معنا شىء . . . ثم إنك ستمر غداً على سوق « بيركوب » فتبتاع منه ما شئت من الطعام .. منذ كم أخذتك الحمى ؟

ومضى موهن من الليل كانت تحمل الريح خلاله إلى همس الجندى وجواب النجار ، ثم غشى الصمت على السكون ، وسكن هزيم الرياح فى الأفق وعقد السكرى أهداب الجفون ...

* * *

— تنبه ... ! تيقظ أيها الرفيق ... دعنا نذهب سريعاً

فانتهضت مرتاعاً من النوم فرأيت الجندى واقفاً بجانبى يستحثنى الى السير وقد تكفأ لونه وتوجف قلبه ، وكانت شمس الصباح الضاحية قد لألأت نواصى الأعشاب فى المرج ...

وتلفت يمينا فاذا النجار ماثل على ظهره ممزق الثياب وكان أزرق الوجه فاغر الفم جاحظ العينين وقد أغرقهما الرعب ، وتصلبت فيهما المحاجر . . .

وهتف الجندى أخيراً :

— أما كفاك تأملاً ... هيا امض بنا ...

فقلت فى تردد :

— أهو ... أهو قتيل ؟ ... هل الطالب ...

فقاطعنى قائلا :

— « ومن غيره ... ربما أنت أو أنا »

واسترسل قائلا :

— أهذا أثر العلم فى نفسه ... أغاية العلم أن يترك رفيقه على هذه الحال ... أما والله لو علمت طوية نفسه قبل ذلك لسفكت دمه ... هيا بنا أيها الرفيق ، يجب أن نذهب عن هذا المكان قبل أن تلمحنا عين انسان .. أفاهم أنت .. إنهم سيكشفون أمره اليوم ويترسمون خطانا ... » ثم وضع يده فى جيبه قائلا :

— ولكن هذا مسدسه معى ... فصحت به :

— ألقه فى الطريق ...

— كلا لن ألقيه . إنه شىء ذو قيمة

ومضينا نحث السير فذكرت فى الطريق طفلتى النجار المسكين فقلت :

— هذا كثير على زوجة الرجل وطفلتيه

فأجاب :

— دع هذا الآن ... وامرع فى سيرك ... عج بنا الى اليمين فأغلب الظن أن البحر فى تلك الجهة

وحدنا عن الطريق فتركت زميلى فى عرض المرج ، وصعدت على وهدة عالية كانت على كثب منا ، وأشرفت بناظرى على ما مضى من الطريق ، فسمعت رفيقى يقول :

— علام تنظر أيها الرفيق .. أدخل فى روعك أن الحياة ستدب فى جسمه ثانيا .. وصمت الرجل قليلا ثم عاد يقول :

— ما أمهر والله ذلك الطالب الذى غافلنا وخادعنا ... ان الناس أيها الرفيق يوغلون فى الشر كلما أوغلوا فى العلم ... يوماً بعد يوم ، وعاماً إثر عام ...

وصمت الرجل فعاد الصمت يبسط جناحيه على الكون ، وبدت الشمس تتلألأ فى صدر السماء ، وضرب الأفق دائرته الزرقاء على المروج فتابعنا السير دراكا ...

وأخيراً قال رفيقى الجندى وهو يخرج من جيبه لفافة من التبغ الرخيص :

— إننى جائع أيها الرفيق

— وما عسانا نأكل هنا ؟

— تلك مشكلة أخرى ...

* * *

وختم الراوى قصته — وكان رجلا أشيب الرأس يرقد الى جوارى فى المستشفى — بهذا القول :

— ومنذ ذلك الحين توثقت وشائج المودة بينى وبين ذلك الجندى لما هو عليه من خلوص النية ، وسماحة الخلق ، فكنت أكن له فى شغاف القلب الحب والعطف ، وأحمل له فى طوايا النفس التجلة والاحترام ، وقد مرنا سويا الى اقليم « كارا » ثم افترقنا الى حيث لا لقاء . فسألته :

— أو لم تعطفك الذكرى بعد ذلك الى ذلك النجار المسكين ؟

فضحك ثم قال :

— ما الذى تريدنى أن أذكره فيه ، أو أستشعره لأجله ... اننى لن ألام على ما حدث له ، ولن تلام أنت ولن يلام أحد غيرنا ... فلن يجدى اللوم ... لأننا كلنا أشباه وحوش ضارية .

اسكندرية أحمد فتحى مرسى

واجب !

ما الذى يمنعك من أن توفر لنفسك القوميسيون ومصاريف المحل و ... الخ إذا وجدت أمامك مورد مصرى يستورد لك الصنف من أشهر فبارك ألمانيا ويسلمها لك رأساً بتكاليفها فقط

مهرب

قلم حبر الكتابة سفنكس القلم الأنيق ذو الريشة الذهب المضمونة عيار ١٤ مثله فى السوق يباع بثمانين قرشا . أرسل فقط ٤٠ قرشا إلى حسين حسنين شارع الطيران نمرة ٣١ مصر الجديدة وللخارج زيادة خمسة قروش يرسل إليكم الطلب فى الحال

مطلوب وكلاء فى الشرق والأقاليم للقلم ولأصناف أخرى مما نستورده من الخارج ما